بسم الله الرحمن الرحيم
Omdurman Islamic University Journal for
Human Sciences (OIUJ)-(HUSC)
مجلة جامعة أم درمان الاسلامية للعلوم الإنسانية و الاجتماعية
https://journal.oiu.edu.sd/index.php/oiuj
https://doi.org/10.52981/oiuj. v22i2.3629
ISSN: 3122-5632
2026; 22(2): 167-201

الحياة الاجتماعية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية: دراسة تحليلية في ضوء كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ

Social life in the Levant during the Crusades: An Analytical Study in Light of the book of "Al-I'tibar" by Usama ibn Munqidh

د. علي بن محمد بن عبد العزيز النغيمشي[1]

[1]أستاذ تاريخ العصور الوسطى المشارك– قسم التاريخ والتراث – كلية اللغات والعلوم الإنسانية – جامعة القصيم – لمملكة العربية السعودية

الايميل:aalneghaimshi@hotmail.com

للاستشهاد بهذا المقال:–

د. علي بن محمد بن عبد العزيز النغيمشي ، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية: دراسة تحليلية في ضوء كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ، مجلة جامعة أم درمان الاسلامية

ISSN: 3122-5632

https://doi.org/10.52981/oiuj. v22i2.3629

الملخص:

يتناول البحث بالدراسة البنية الاجتماعية لبلاد الشام إبان الحروب الصليبية والتحولات التي طرأت على المجتمع الشامي نتيجة احتكاكهم بالصليبيين، وكذلك تأثير المجتمع الإسلامي بدوره على الصليبيين، فمن المؤكد تاريخيًا أن طوال مدة الحروب الصليبية لم تكن صراعًا عسكريًا بحتًا مع المسلمين؛ وإنما تخللها نوع من التعايش السلمي بين الطرفين نتج عنه صداقات ومعاملات إنسانية وامتد الأمر إلى زيجات متبادلة بين الطرفين، وكذلك موقف نصارى بلاد الشام في الصراع بين المسلمين والصليبيين، يسلط البحث الضوء على القيم والخصال الاجتماعية مثل: النخوة والشجاعة ومظاهر الترفيه والاحتفالات ورحلات الصيد، ويولي البحث أهمية خاصة للمرأة في المجتمعين الإسلامي والصليبي بوصفها عنصرًا رئيسًا في المجتمعين، ويبين البحث كذلك بعض المؤثرات المتبادلة بين الطرفين.

تتمثل إشكالية الدراسة في كيفية محافظة المجتمع الشامي الشرقي على هويته وقيمه في ظل الصراع العسكري والانفتاح مع الصليبيين؟ وما هو مدى التأثير والتأثر بين المجتمعين الإسلامي والصليبي.

تهدف الدراسة البنية الاجتماعية لبلاد الشام إبان الحروب الصليبية، العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين، القيم والعادات في المجتمعين الإسلامي والصليبي، الحياة اليومية والترفيه، دور ومكانة وتأثير المرأة في المجتمعين الإسلامي والصليبي، وأخيرًا؛ مظاهر التأثير والتأثر الاجتماعي والحضاري بين المسلمين والصليبيين، ومن ثَمَّ فقد قُسِّم البحث إلى مقدمة وعدة محاور وفقًا لهذه الأهداف.

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال تتبع الأحداث في كتاب أسامة بن منقذ ومقارنتها بما ورد في المصادر الأخرى العربية والأجنبية للوصول إلى رؤية شاملة عن المجتمع الشامي خلال تلك الحقبة الزمنية، أمكن من خلالها الخروج بعدد من النتائج لعل من أبرزها؛ أن الدراسة أكدت على أهمية كتاب الاعتبار كمصدر لدراسة المجتمع في بلاد الشام إبان الحروب الصليبية، وأظهرت كيف تعايش المسلمون والصليبيون في بلاد الشام، وأكدت على ضرورة عدم الاعتماد على المصادر الأجنبية كليًا فكثير منها يشوبه بعض المجاملات والمبالغات في وصف الأحداث.

الكلمات الدالة: علاقات اجتماعية، الحملات الصليبية، بلاد الشام، أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار.

Abstract:

The research examines the social structure of the Levant during the Crusades and the transformations that occurred in Levantine society as a result of their contact with the Crusaders, as well as the influence of the Islamic society on the Crusaders. It is historically certain that throughout the Crusades it was not a purely military conflict with the Muslims, but rather it was punctuated by a kind of peaceful coexistence between the two sides, which resulted in friendships and humane interactions, and extended to mutual marriages between the two sides. The research also examines the position of the Christians of the Levant in the conflict between the Muslims and the Crusaders. The research highlights social values and characteristics such as chivalry, courage, manifestations of entertainment, celebrations, and hunting trips. The research gives special importance to women in the Islamic and Crusader societies as a key element in both societies, and the research also shows some of the mutual influences between the two sides.

The problem in this study is how the Levantine society maintained its identity and values in light of the military conflict and openness with the Crusaders. What was the extent of influence and interaction between the Islamic and Crusader societies?

The study aims to examine the social structure of the Levant during the Crusades, the social relations between Muslims and Crusaders, the values and customs in the Islamic and Crusader societies, daily life and recreation, the role, status and influence of women in the Islamic and Crusader societies, and finally, the manifestations of social and cultural influence and interaction between Muslims and Crusaders. Therefore, the

research was divided into an introduction and several main sections in accordance with these objectives.

The study relied on the analytical historical method, by tracing the events in the book of Usama Ibn Munqidh and comparing them with what was mentioned in other Arabic and foreign sources to reach a comprehensive view of the Levantine society in that period. It was possible to come up with a number of results, perhaps the most prominent of which are: The study confirmed the importance of the book of Al-I'tibar as a source for studying society in the Levant during the Crusades. The study showed how Muslims and Crusaders coexisted in the Levant. The study confirmed the necessity of not relying entirely on foreign sources, as many of them are marred by some flattery and exaggeration in describing events.

Keywords: Social relations, the Crusades, the Levant, Usama ibn Munqidh, The Book of Al-I'tiba

المقدمة:

تعددت أجناس وأعراق وقوميات ولغات وديانات المجتمع في بلاد الشام إبان مدة الحروب الصليبية، فعلى مدار أكثر من قرنين من الزمان؛ استطاع فيهما الصليبيون من تأسيس مملكة وعدة إمارات في بلاد الشام، استفاد خلالهما الصليبيون من المسلمين إفادة عظيمة؛ لا سيما وأنه لم تكن طيلة هذه الحقبة التاريخية اشتباكات عسكرية بين الصليبين والمسلمين؛ وإنما كان هناك العديد من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية بين الطرفين؛ لا سيما في مجال الفن والعمارة؛ فقد كانت الحروب الصليبية إحدى أهم معابر الاتصال الحضاري بين المسلمين وأوروبا خلال العصور الوسطى.

هذا ويعد أسامة بن منقذ في كتابه "**الاعتبار**" من أهم المصادر العربية لدراسة المجتمع في بلاد الشام إبان مدة الحروب الصليبية، حيث تناول أسامة في كتابه ليس مشاهدات فقط وإنما مواقف شخصية مع المسلمين والمسيحيين الشرقيين والصليبيين على حد سواء، يمكن أن نستشف من هذا المواقف أحوال المجتمع الشامي في تلك المدة حيث عاش ابن منقذ في المدة (488- 584هـ/ 1095- 1188م). وينسب أسامة إلى بني منقذ من كنانة وينتهي نسبهم إلى بني قحطان، وكان لهم أملاك في حماة وحلب؛ إلى أن آلت لهم

قلعة شيزر (قيصرية) الواقعة على الضفة الغربية لنهر العاصي وكان لموقعها أهمية بالغة في زمن الحروب الصليبية وتعرضت للعديد من الغزوات ليس من الصليبيين فحسب، بل من الباطنية/ الإسماعيلية، وتصدت القلعة لكل هؤلاء بفضل مناعة تحصيناتها وموقعها وعزيمة وشجاعة رجالها وأمرائها[1].

تخللت فترات الصراع بين المسلمين والصليبيين حالات من التعايش السلمي والتقاط الأنفاس للطرفين اقتضتها الضرورة لتحقيق الأمن والسلام للطرفين؛ لا سيما وأنه كان هناك مناطق حدودية تفصل بين الطرفين تدار مناصفة بينهما، وقُسِّمت نتاج غلالها كذلك مناصفة، وكانت تلك الإدارة المشتركة وَفقًا لقوانين اتُّفق عليها مسبقًا[2]، ازدهرت مع هذه الحالة من التعايش السلمي بين الطرفين حركة التجارة واستمرت دون انقطاع لما تقتضيه حاجة الطرفين الماسة لمنتجات ومحاصيل الطرف الآخر؛ وقد كان التجار والقادمون إلى هذه المناطق آمنين على أرواحهم؛ بل ومخفورين بالحراسة من كلا المتعاقدين[3].

ومن بين ما يؤكد على وجود علاقات بين المسلمين والإفرنج ما ذكره أسامة بن منقذ في كتابه أن صاحب حصن المُنَيْطِرة –حصن للصليبيين قرب نهر إبراهيم بجبال لبنان الغربية إبان الحروب الصليبية– كتب إلى عم أسامة بن منقذ، عز الدين أبو العساكر وأمير شيزر وطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه فأرسل إليه طبيب نصراني ظَلَّ لدى

(1) وقد نشأ **أسامة بن منقذ** في رعاية أبيه مجد الدين مرشد أمير قلعة شيزر وعمه عز الدين سلطان الذي تنازل له أبو أسامة عن حكم شيزر، شغف أسامة بالعلم والعلماء؛ فدرس الشعر والقرآن والحديث والتاريخ والسير وتمرس على الصيد والقتال وتحلى بالشجاعة وحضور الذهن وحسن التصرف، وكان يعدُّ لحكم شيزر بعد عمه حتى رزق عمه بالولد فخشي أسامة على نفسه وخرج إلى الموصل 522هـ ثم إلى دمشق عام 532هـ، ومنها إلى مصر عام 540هـ ومنها عاد مرة أخرى إلى دمشق 549هـ وبعدها بثلاث سنوات عام 552هـ أصاب قلعة شيزر زلزال عظيم أتي على القلعة وأهلك بني منقذ ونجا منه أسامة لوجوده بدمشق، ثم أصبح من المقربين لصلاح الدين منذ عام 570هـ وذلك لوجود ابنه مرهف ضمن جلساء صلاح الدين، أسامة بن منقذ الكناني الشيرازي (ت. 584هـ/ 1188م)؛ الاعتبار، مذكرات أسامة بن منقذ في الحروب الصليبية مع ملحقها في أخبار الصالحين ومشاهد الصيد والقنص، تحقيق وتقديم؛ عبد الكريم الأشتر، منشورات المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت 1424هـ/ 2003م، ص10– 17.

(2) وفاء جوني؛ دمشق والمملكة اللاتينية في القدس منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلاديين (492– 569هـ/ 1098– 1174م)، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط1 1417هـ/ 1997م، ص102.

(3) أحمد حطيط؛ المدلول التاريخي لنصوص الهدنة المعقودة بين المماليك والفنج، هدنة عكا (682هـ/ 1283م) نموذجًا، مجلة تاريخ العرب والعالم، مجلد 19، عدد 179 لسنة 1420هـ/ 1999م، ص48، وللمزيد راجع؛ علي الغمراوي؛ أضواء جديدة على العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مجلة الدارة، العدد1، مجلد 18، 1412هـ/ 1992م، ص184.

الصليبيين في الحصن عشرة أيام يداوي مرضاهم ثم عاد لشيزر يقص عليهم ما شاهده من عجيب طب الصليبيين[1].

❖ **البنية الاجتماعية ببلاد الشام إبان الحروب الصليبية:**

اشترك في تكوين المجتمع في بلاد الشام إبان الحروب الصليبية عدد كبير من الجنسيات والعرقيات والأديان، منها عدد كبير من الجنسيات الأوروبية المختلفة وطبقات اجتماعية متباينة، وشكل الفرنسيون العنصر الغالب في المجتمع الصليبي حتى أطلق العرب اسم "الفرنجة من Francs" تعبيرا على الصليبيين كافة، إلى جانب الإيطاليين الذين سكنوا المدن الساحلية ببلاد الشام واستغلوا الحروب الصليبية لتحقيق المكاسب التجارية، بالإضافة إلى أقليات من النورمان والإنجليز والألمان[2].

من المعرف تاريخيًا أن قوام المجتمع في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية قد ضم عددًا كبيرًا من الأعراق والقوميات والأجناس[3]، كان على رأسهم **المسلمون** وهو السمة الغالبة في العناصر الوطنية من أصحاب الأرض؛ فكان الإسلام عقيدة الحكام وأغلبية سكان بلاد الشام وعلى الرغم من طردهم من المدن والإمارات التي استولى عليها الصليبيون وحل محلهم الصليبيون الذين جاءوا مع الحملة الأولى؛ إلا أنهم ومع مرور الوقت بدأ هؤلاء الصليبيون ممن جاءوا للحج أو للمشاركة مع الحملة بالعودة إلى أوطانهم وبدأ مع ذلك عودة المسلمين إلى تلك الإمارات أو على الأقل عودتهم إلى الأرياف والأراضي الزراعية المجاورة للإمارات الصليبية؛ ومع العقد الثاني للوجود الصليبي ببلاد الشام وتغير سياستهم التعسفية تجاه المسلمين سمحوا لهم بالبقاء[4]. يرجح أن يكون هذا التحول في السياسة الصليبية تجاه

(1) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص220.

(2) رحمة رواق وكمال بن مارس؛ المجتمع الصليبي في بلاد الشام منذ الحملة الصليبية الأولى حتى فتح بيت المقدس (491- 583هـ/ 1096- 1187م)، مجلة عصور، جامعة وهران- الجزائر، مجلد21، ع1، 2022م، ص108.

(3) يُذكر أن مدينة أنطاكية على سبيل المثال كان بها العديد من الأعراق والجنسيات مثل: الفرنج والسريان واليونان واليهود والأرمن والمسلمون والحشاشون والجورجيون والنساطرة واليعاقبة والفرس والمصريين، وكذلك سكان بيت المقدس يُذكر أنهم كانوا يتحدثون أكثر من لغة ويعتنقون أكثر من ديانة ومذاهب شتى، قاسم عبده قاسم؛ ماهية الحروب الصليبية، (الأيدلوجية- الدوافع- النتائج)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الجيزة 1993م، ص 166.

(4) يوشع براور؛ عالم الصليبيين، ترجمة وتعليق؛ قاسم عبد قاسم ومحمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية- القاهرة، ط1 1999م، ص67- 77.

المسلمين راجع إلى إدراكهم لأهمية وجود العنصر السكاني المسلم للاعتماد عليه في الطبقة العاملة في مجال الزراعة والصناعة والبناء في مقابل ولاء المسلمين لهم وتأدية الضرائب المفروضة عليهم، وقد قبل المسلمون بذلك وتحملوا الكثير من التجاوزات في حقهم من سلب ونهب واضطهاد أملاً منهم في استرداد حقهم وأرضهم[1].

ضم المجتمع الصليبي كذلك نسبة من **المسيحيين الشرقيين**، فبعد عودة الصليبيين إلى موطنهم الأصلي أصبحت ممالكهم في بلاد الشام خاوية خاصة مملكة بيت المقدس التي أصبح عدد الحامية العسكرية الصليبية فيها لا يتعدى سوى ثلاثمائة فارس والعدد نفسه من المشاة فقط للدفاع عن المدينة، ومن ثَمَّ فقد عانت الممالك الصليبية بشكل عام ومملكة بيت المقدس على وجه الخصوص من نقص العنصر البشري بها مما دفع الملك بلدوين الأول إلى دعوة المسيحيين الشرقيين للهجرة والاستيطان في المدينة وأصبح عددهم أكبر من أعداد الصليبيين[2]، وقد أقبل المسيحيون المحليون من موارنة وسريان وأرمن وروم أرثوذكس على الهجرة لعدة أسباب أولها: خوفًا من انتقام المسلمين منهم لا سيما بعد ترحيبهم ودعمهم للحملة الصليبية الأولى، وثانيها: الامتيازات التي وعدهم بها ملك بيت المقدس، وقد خصص لهم جزء كبير من المدينة عُرف زمن سيطرة الصليبيين على المدينة باسم "حي النصارى السوريين"، بالإضافة إلى جاذبية الأماكن المقدسة[3].

أشار المؤرخون المعاصرون لفترة الحروب الصليبية إلى تعدد أجناس وديانات سكان المدن في بلاد الشام؛ فمدينة عكا والتي كانت تعد واحدة من أهم مدن بلاد الشام بالنسبة للصليبيين كانت تضم بين سكانها الصليبيين والمسيحيين الشرقيين والمسلمين جنبًا إلى جنب، وقد وصفها بن جبير بقوله "هي قاعدة بلاد الإفرنج في بلاد الشام وبها مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق

(1) علي السيد علي؛ العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة 1996م، ص51.

(2) وِلْيَم الصوري؛ تاريخ الحروب الصليبية، الأعمال المُنجزة فيما وراء البحار، ترجمة؛ سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، 1990م، جزء1، ص 318.

(3) رحمة رواق وكمال بن مارس؛ المجتمع الصليبي في بلاد الشام، ص108.

فيها مواطئ الأقدام"[1]، وكان هذا التنوع سببًا في حيرة وارتباك الصليبيين القادمين من الغرب الأوروبي إلى بلاد الشام وذلك لوجود المسلمين أو حتى المسيحيين الشرقيين الذين يظهر مدى ارتباطهم بمواطنيهم المسلمين[2].

نتج عن التلاحم والتعايش السلمي بين المسلمين والصليبيين من جهة أو بين الصليبيين وبين المسيحيين من بلاد الشام من جهة أخرى، إلى وجود العديد من العلاقات الاقتصادية المتبادلة بين هذه الأطراف من زراعة وصناعة وتجارة، أعقبها علاقات اجتماعية من صداقات ومصاهرات وزيجات بين الصليبيين من جهة وبين المسلمين أو المسيحيين الشرقيين من جهة أخرى؛ أدت بدورها إلى تأثير وتأثر بين المجتمعين الشرقي –المسلمين والمسيحيين– والصليبي في العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية وامتدت كذلك إلى الملبس والمأكل والمسكن.

❖ **العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين:**

أ– مشاهد من الصداقة وحسن المعاشرة، وتأثر الصليبيين بأخلاق المسلمين:

يذكر أسامة بن منقذ عددًا من المواقف التي تؤكد على وجود صداقة ومعاشرة بين المسلمين والصليبيين وقت السلم؛ لعل أبرزها عندما قصَّ موقفًا لأحد فرسان الملك فُلك بن فُلك والذي تولى إمارة بيت المقدس سنة 524هـ؛ وقد جاء هذا الفارس إلى بلاد الشام ليحج ووصفه أسامة بأنه كان محتشمًا وقد أنس لأسامة وصار ملازمًا له وبينهما مودة ومعاشرة وأصبح ينادي أسامة بـ "أخي" وعندما أقدم هذا الفارس إلى العودة لموطنه وذهب أسامة معه ليودعه عرض عليه الفارس أن يُرسل معه ابنه مرهب –ابن الرابعة عشر من عمره– لبلاده كي يُعلمه مهارات الفروسية والعقل؛ إلا أن أسامة اعتذر منه بحجة أن جدته تحبه ولا تريد مفارقته[3].

(1) ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد) (ت. 614هـ/ 1217م)؛ رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر (د.ت)، ص276.

(2) قاسم عبده قاسم؛ بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، مجلد22، ع2، 1993م، ص380.

(3) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص219.

يؤكد أسامة على أن الإفرنج الذين استوطنوا ببلاد الشام وعاشروا المسلمين كانوا أفضل وأصلح من الإفرنج قريبي العهد، فيذكر موقف بمدينة أنطاكية في عهد ملكها تادِرس بن الصُّفّي والذي كان يجمع بينه وبين أسامة صداقة، وإذا بفارس من فرسان الحملة الصليبية الأولى وقد استوطن بأنطاكية وأصبح له بأنطاكية ملك يعيش منه؛ فأحضر مائدة حسنة ودعا أسامة وصاحبه إليها، وعندما رآهم لا يأكلون، قال لهم: إنه لا يأكل طعام الإفرنج ولا يدخل داره لحم الخنزير –لأنه يعلم أنه مُحرم على المسلمين– وأن الذي يُعد طعامه طباخات مصريات، فأكلا من الطعام على محترز، وبعد أن خرجا إلى السوق استوقفتهما امرأة إفرنجية وجمعت رجال من السوق ليفتكوا بهما بحجة أنهما قتلا أخاها، وإذا بهذا الفارس الذي دعاهما إلى المائدة قد حضر وخلصهما منهم، وقال: إنه تاجر لا يُقاتل، وأخذ بيده ومضى[1].

يؤكد ابن منقذ في كتابه في مشهد آخر أن الإفرنج قريبي العهد ببلاد المسلمين كانوا أكثر جفاء في أخلاقهم وأشد غلظة في قلوبهم من أولئك الذين سكنوا في بلاد المسلمين وعاشروا المسلمين مدة طويلة، فيذكر في إحدى زياراته للمسجد الأقصى وبجانب المسجد الأقصى مسجد صغير، حوّل الصليبيون هذا المسجد الصغير لكنيسة وأصبح مركزًا للداويّة وهم فرسان الهيكل المنقطعين لقتال المسلمين وكان منهم أصدقاء لأسامة بن منقذ، وعند زيارة أسامة للأقصى يترك الداويّة هذا المسجد الصغير ليصلي فيه؛ ففي إحدى زياراته وأثناء صلاته قام أحد الفرسان –وكان حديث العهد ببلاد الشام– بالهجوم على أسامة ووجه وجهه للشرق ليصلي وإذا بالداوية يخرجوه عنه ليكمل صلاته ولكن الرجل أعاد الكرة مرة ثانية فعاد الداويّة وأخرجوه واعتذروا لأسامة وقالوا له "هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام وما رأى من يُصلّي إلى غير الشرق"[2]، يفهم من هذا الحادث الذي ذكره أسامة أن طول العشرة للصليبيين في بلاد الشام قد غيرت من أخلاقهم للأفضل وكسرت غلظة قلوبهم تجاه المسلمين، وأكثر شاهد على ذلك أنهم يتركون مركزهم بجوار المسجد الأقصى –وهو المسجد

(1) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص231– 232.

(2) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص225.

الصغير– لأسامة بن منقذ ليصلي فيه ويقوموا بتهيئة المناخ له للصلاة ويصدوا عنه من يقوم بقطع صلاته.

ولا عجب فيما سبق؛ إذ إن السباقات والمباريات الرياضية التي كانت تُقام بين المسلمين والصليبيين وقت السلم، وكذلك تربية طائر الباز الوذي كان يستخدمه أهل الشام في رحلات صيدهم والتي كان يشاركهم فيها الحجاج المسيحيون والصليبيون، أدت بطبيعة الحال إلى تكوين صداقات بين الطرفين[1]. ومما يؤكد على وجود هذه الصداقات بين المسلمين والصليبيين ما ذكره ابن جبير في رحلته عن مشاركة المسلمين في مدينة صور النصارى في أفراحهم واحتفالاتهم، ووصف أحد الأفراح وكيف كان هناك تقارب كبير بين لباس المسلمين والصليبيين وكذلك التقارب في العادات والتقاليد[2].

وفقًا للروايات التاريخية؛ لم تقتصر علاقات المودة والصداقة بين المسلمين والصليبيين وقت السلم فقط؛ بينما امتدت خلال الصراعات الدموية بين الفريقين بعدما سئم جنود الفريقين من طول مدة القتال فيما بينهم فيقفا ليتبادلا الفكاهة والطرف إلى أن يعودوا للقتال مرة ثانية؛ وهو ما تؤكده رواية بن شداد عندما طال القتال بين الفريقين في عكا عام 586هـ/ 1190م فذكر "أنس البعض بالبعض بحيث كانت الطائفتان –يقصد المسلمون والصليبيون– تتحدثان وتتركان القتال، وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ثم يعودون للقتال بعد ساعة"[3]، وإن كان من الصعب تصديق رواية بن شداد؛ إلا أنه يمكن اعتبارها ككناية إلى وجود علاقات سلمية بين المسلمين والصليبيين وكراهية الحرب لدى الطرفين ورغبتهم في التعايش السلمي وأن الجنود أنفسهم كانوا يسئمون القتال.

ب– موقف نصارى بلاد الشام من الحروب الصليبية والزيجات المتبادلة مع الصليبيين:

(1) عزيز سوريال عطية؛ الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فليب سيف، دار الثقافة، بيروت (د.ت)، ص131.

(2) ابن جبير؛ رحلة ابن جبير، ص278.

(3) بهاء الدين ابن شداد (ت.632هـ/ 1234م)؛ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق؛ جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي القاهرة، ط2 1415هـ/ 1994م، ص166– 167.

من المؤكد تاريخيًا أن ادعاء الغرب بأن الحملات الصليبية على بلاد الشام كان لحماية الحجاج وحماية النصارى من بطش المسلمين لا أساس لها من الصحة؛ فقد عاش نصارى الشرق جنبًا إلى جنب مع المسلمين في سلام، وذاقوا سويا ويلات تلك الحملات وعملوا سويًا على التصدي لها.

من المواقف التي ذكرها ابن منقذ في كتابه موقفًا لشخص يدعى يونان من نصارى طرابلس، عندما استأجر مملوكًا لأسامة بغل يونان ليحمله في طريقه، وعندما أرادوا أن يصلوا إلى شيرز لقيهم أحد أرباب الدواب وحذرهم من وجود قطّاع طرق في طريقهم، وإذا بالقافلة تحتار في أمرها هل يسيروا من هذا الطرق أم لا؟ وإذا بهم يجدوا يونان قد أقبل مسرعًا وقال لهم أنه جاء ليسيرهم في طريقهم خوفًا عليهم من قطّاع الطرق؛ فسار بهم حتى اجتاز الطريق وأمنَّهم ثم ودعهم وعاد إلى سبيله[1].

على الرغم من ذلك نجد أن العديد من المصادر التاريخية المعاصرة للحروب الصليبية لا سيما المصادر المسيحية قد أوضحت أنه من بين أبرز النتائج السلبية للحروب الصليبية على مجتمع بلاد الشام تتمثل في توتر وتقلب العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، فعلى الرغم من أن الصليبيين قد عاملوا المسيحيين الأرثوذكس من أهل الشام معاملة قاسية، واستولوا على كنائسهم وحولوها إلى كنائس كاثوليك، ومنعوا كذلك الأقباط من زيارة بيت المقدس على اعتبار أنهم هراطقة كل هذه الأحداث مجتمعة تشير إلى أن العلاقة بين الصليبيين ونصارى بلاد الشام كانت متوترة؛ إلا أن مشاركة بعض طوائف المسيحيين كالموارنة والسريان والأرمن، في مساعدة الصليبيين قد زرع بذور الشك في قلوب المسلمين، التي تولدت منها أحداث عنيفة ضد المسيحيين تباينت حدتها خلال عصري الأيوبيين والمماليك[2].

(1) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص1540- 155.

(2) ولْيَم الصوري؛ تاريخ الحروب الصليبية، ص52- 53.

انتشر في المجتمع الصليبي في بلاد الشام الزواج من الشرقيات، خاصة الأرمينيات والبيزنطيات؛ وكان ذلك أمرًا شائعًا في أوساط الشريحة العليا من نبلاء الفرنجة قبل مجيئهم لبلاد الشام، فمن ثَمَّ كان من المألوف أن تكون أم أو جدة أو خالة أحد الصليبيين القادمين لبلاد الشام مسيحية شرقية، وكانت هذه الزيجات تجلب معها الخدم والحشم من الشرق سواء من المسيحيين أو المسلمين، أما أبناء الشرائح الاجتماعية الدنيا في المجتمع الصليبي من صغار الفرسان أو سكان الإمارات الصليبية فكانوا غالبًا ما يتزوجون من المسيحيات الشرقيات من مستواهم الاجتماعي نفسه [1].

هذا ومن المعروف تاريخيًا أيضًا أن الصليبيين قد أقبلوا على الزواج من المسيحيات من الموارنة والسريان والأرمن –نصارى الشرق الذين ساعد الصليبيين في حملاتهم– وكذلك بعض الأسيرات المسلمات اللاتي تنصرن، وعلى الجانب الآخر فقد أقبل المسلمون من الزواج بدورهم من الأسيرات الإفرنجيات، وقد نشأ عن هذه الزيجات مجتمعة جيل من المولودين عرفوا تاريخًا باسم الأفراخ والذين غلبت على طباعهم العادات والتقاليد الشرقية، ومنهم من أصبح موالي للصليبيين واستخدموهم في تشكيل فريق الخيالة[2].

يُعد الزواج أحد أهم العوامل في الاختلاط والترابط الاجتماعي، وعلى الرغم من أن المسلمين لم يتم بينهم وبين الصليبيين ببلاد الشام عقد زيجات إلا نادرًا –وفقًا للمصادر التاريخية–؛ ويرجع الدافع في ذلك اعتزاز المسلمين بدينهم وتراثهم، وكيف لهم أن يتزوجوا من المعتدين على أرضهم وديارهم، إضافة إلى أن المسلمين كانوا يشعرون بأنهم أرقى ثقافة من الصليبيين، إلا أن الصليبيين ونصارى بلاد الشام قد حدث بينهم العديد من الزيجات؛ حيث تزوج الصليبيون من السوريات المسيحيات ، كما تزوج بعض السوريين المسيحيين بالصليبيات، فنشأ عن ذلك التزاوج جيل جديد مهجن بين العنصر العربي والفرنجي –كما

(1) يوشع براور؛ عالم الصليبيين، ص107. وللمزيد عن الزيجات بين الصليبيين والشرقيات راجع؛ رحمة رواق وكمال بن مارس؛ الزواج في المجتمع الصليبي في بلاد الشام من خلال النصوص العربية (491– 583هـ/ 1096– 1187م)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الشهيد حمه لخضر– الوادي، الجزائر، مج7، ع4 2022م، ص 783– 795.

(2) سعيد عاشور؛ تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، دار النهضة العربية، بيروت 2003م، ص332.

سبق الذكر-. وقد غلبت على هذا الجيل الطبائع والعادات الشرقية، مثل الشك والغيرة والنخوة على الزوجات؛ مما جعلهم يحبسون زوجاتهم في أماكن كالسجن ويضعونهن تحت حماية صارمة ودقيقة، حتى من أقرب الناس إليهن من الأخوة والأقارب، فنادرا ما كان هؤلاء يأتون إليهن لزيارتهن، كما قاموا بمنعهن من زيارة الكنائس للعبادة واستماع المواعظ، وكان الدافع وراء ذلك خوفًا عليهن من الانحلال الأخلاقي وانعدام النخوة في المجتمع الصليبي[1].

من الحالات النادرة لزواج المسلمين من أسيرات الصليبيين والتي وردت في كاتب الاعتبار لابن منقذ؛ ما ذكره عقب واقعة دخول قافلة الحجاج الإفرنج لشيزر، والانتصار عليهم وأسر عدد كبير منهم؛ وكان من بين الأسرى جارية أَمر عز الدين أبو العساكر -عم أسامة- بتجهيزها وإهدائها لشهاب الدين مالك بن سالك صاحب قلعة جَعْبَر على نهر الفرات، فاتخذها شهاب الدين لنفسه وأنجب منها ولده وولي عهده وأصبحت الآمرة الناهية في القلعة، إلى أن هربت وتزوجت إسكافٍ بعد أن كانت أميرة في أرض المسلمين[2].

لعل أبرز مشاريع الزواج بين المسلمين والصليبيين والتي كان سيكون له أبلغ الأثر في توطيد العلاقات بين المسلمين والصليبيين هو زواج الملك العادل أبي بكر من بالأميرة الإنجليزية جوانا أخت ريتشارد قلب الأسد، وذلك بعد عرقلة المفاوضات بين الملك العادل والذي أنابه صلاح الدين للتفاوض مع ريتشارد فعرض عليه ريتشارد زواجه من أخته 587هـ/ 1191م، إلا أن مشروع الزواج هذا لم ينجح بسبب تعنيف الصليبيين لجوانا وأنها إن فعلت تكون قد انشقت عن المسيحية وتكون عاصية للمسيح، وعلى الرغم من نجاح مشروع الزواج إلا أن الفكرة نفسها توضح مدى ما وصلت إليه العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين بصفة عامة؛ وما وصلت إليه من علاقة طيبة بين الملك العادل وريتشارد[3].

❖ القيم والعادات في المجتمعين الإسلامي والصليبي:

(1) يعقوب الفيتري؛ تاريخ بيت المقدس، ترجمة؛ سعيد البيشاوي، دار الشروق عمان، الأردن، ط١، ١٩٩٨م، ص٦٣- ٦٦، الشارتري؛ تاريخ الحملة إلى القدس، ص218.

(2) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص217- 218.

(3) فريد وحيد صيدم؛ العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين في مملكة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، مجلة جامعة فلسطين للأبحاث والدراسات، مجلد6، عدد2، يونيو 2016م، ص270- 271. وللمزيد راجع ابن شداد؛ النوادر السلطانية، ص 293.

أ- مشاهد من الشجاعة والإقدام بين المسلمين والصليبيين:

ذكر أسامة بن منقذ العديد من المواقف التي تعبر عن الشجاعة والإقدام بين المسلمين والصليبيين؛ لعل من أكثر المشاهد التي ذكرها تجسد روح الشجاعة والإقدام للمسلمين؛ ما ذكره عن رجل يُدعى علي بن فرج من كنانة، وهذا الرجل قد أصابه مرض في إحدى قدميه فأنتنت وأضطر الطبيب إلى بترها فأصبح برجل واحدة؛ ولم يمنعه ذلك عن محاربه الصليبيين، فكان يركب فرسه وفي سرجه قدم واحدة والناحية الأخرى يربط ركبته بسير ليثبته فوق رأسه، وأخذ يطاعن الصليبيين على هذا الحال وشاهده أسامه بن منقذ قائلا "كنت أراه – رحمه الله– لا يستطيع رجل أن يشابكه ولا يقابضه"[1].

ومن المواقف التي ذكرها أسامة بن منقذ أيضًا تدل على شجاعة المسلمين موقف لفلاح حضر إلى عم أسامة في مدينة شيزر ليعطيه ما غنمه في نزاله مع فارس صليبي وقال الرجل: إنه هجم على الفارس بدون أي سلاح ولكمه حتى أُغشي عليه ثم أخذ سيفه وقتله به[2]. وأثناء حصار حصن البارعة الذي كان في يد الصليبيين أغار عدد من المسلمين بدون عتاد الحرب وهجموا على الصليبيين وقام أحد المسلمين لم يكن مشهورًا بالقتال فقاتل قتالاً عظيمة على الرغم من عدم ارتدائه الدروع حتى أصيب أصابات بالغة ثم تعافى وخلع عليه قائده وجعله من جنوده الخاصة[3]. وأمثلة أخرى ذكرها أسامة بن منقذ لرجال أقدموا على جمع كثير أو قوافل بمفردهم وحملوا عليهم وقتلوا منهم عددًا كبيرًا، ومن عجيب أن رجلًا منهم قد استولى على حصن بمفرده[4].

ولم تقتصر شجاعة المسلمين على الرجال فقط وإنما تحلت بها النساء أيضًا ففي موقعة بين المسلمين والصليبيين بالقرب من الجسر الفاصل بينهما على حدود مدينة شيزر أسرت إحدى فتيات المسلمين تدعى "رفول" وهي ابنة أحد الجنود يُدعى "أبو الجيش" في

(1) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص238.

(2) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص242.

(3) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص251– 252.

(4) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص146، 151، 152، 153.

جيش المسلمين وبعد أيام وجدوها غريقة في النهر؛ وقد رمت نفسها في النهر من على حصان الفارس الإفرنجي مقبلة على الغرق والموت على ألا تقع في الأسر فهدأت لوعة أبيها[1].

ومثلما قام أسامة بن منقذ بتعديد مشاهد الشجاعة والإقدام في صفوف المسلمين نجده أيضًا يذكر مجموعة من المواقف الطريفة منها: أنه ذكر عن عمه عز الدين أبي العساكر وعلى الرغم من مدى شجاعته وإقدامه على الأعداء إلا أنه كان يخاف الفأرة، وكان في غلمانه أيضًا رجل معروف بشجاعته إلا أنه قد فزع من الحية، وعندما سأله مولاه أبا بكر – عم أسامة– "أنت رجل جيد معروف بالشجاعة، ما تستحي أن تفزع من الحية، قال له؛ يا مولاي وأي شيء في هذا من العجب؟ في حمص رجل شجاع، بطل من الأبطال يفزع من الفأرة" يقصد مولاه أبا بكر[2]، ومواقف أخرى أدى فيها تهورهم وعدم عمل حساب لقدرات أعدائهم إلى موت بعضهم وتعرضهم للهزائم[3].

أما الصليبيون فيتعجب ابن منقذ مما يحملونه من صفات الشجاعة على الرغم من انعدام النخوة لديهم قائلًا "سبحان الخالق البارئ! إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج سبح الله تعالى وقدسه، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير" ومرة أخرى يستنكر من عدم نخوة ولا غيرة من أحد الرجال الصليبين في الحمام عندما طلب من الحمامي أن يحلق عانة زوجته؛ فيقول أسامة "فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم شجاعة عظيمة! وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والغيرة"[4].

ب– مشاهد من نخوة الرجال: مفارقة بين نخوة المسلمين والصليبيين ببلاد الشام:

أولًا: نخوة رجال المسلمين:

(1) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص243.

(2) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص232.

(3) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص246– 251.

(4) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص219، 226.

من أبرز ما يتعلق بنخوة المسلمين قضية التعامل مع ملف الأسرى؛ خاصة الأسيرات المسلمات في معسكرات الصليبيين خاصة بعد ما تعرضن له من انتهاكات وقسورة في التعامل كإجبارهن للعمل في الأعمال الشاقة وتعذيبهن ووصل بهن الأمر إلى إجبارهن على الارتداد عن الإسلام والتنصر، ومن هنا نهض دور علماء المسلمين في تأصيل مفهوم الجهاد وشحن النفوس بالقيم الجهادية، وإبراز القيم التي تحث على حماية النساء والدفاع عنهن بدافع ديني وأخلاقي يتبلور في إثارة نخوة الرجال؛ حيث أن الخوف من وقوع النساء المسلمات في الأسر من شأنه أن يزيد استبسال المقاتلين خشية أن يقعن في أيدي الأعداء[1]، ولم يكن الحفاظ على شرف النساء مترسخ في عقيدة الرجال فقط؛ بل ترسخت تلك العقيدة لدى النساء المسلمات أنفسهن، فبات الموت أهون عليهن من أن يقعن في الأسر؛ وهو ما تؤكده بعض المشاهد التي أوردها أسامة بن منقذ في كتابه والتي سنتناولها بالتفصيل عند الحديث عن المرأة المسلمة ودورها الفعّال خلال الحروب الصليبية[2].

سلك المسلمون شتى الطرق من أجل تحرير الأسرى من قبضة يد الصليبيين والنساء منهم على وجه الخصوص سواء بشرائهن من أيدي الصليبيين أو مقايضتهن بأسرى صليبيين في معسكرات المسلمين، وقد أفتى العديد من العلماء بتخصيص أموال الأوقاف لشراء الأسرى، ومما أورده أسامة بن منقذ في هذا الشأن ما قام به من محاولة شراء عدد من الأسرى من رجل يُدعى "كليام" وكان لديه عدد ثمانية وثلاثون أسيرًا من بينهم امرأة فاشتراها منه ولم يدفع ثمنها وأراد أن يشتري من الرجال ما يقدر عليه وهو عشرة رجال إلا أن الرجل رفض، ولحسن الحظ هرب الأسرى جميعًا في الليلة نفسها[3]. ومما ذكره ابن منقذ أيضًا ما قام به عمه عز الدين أبو العساكر سلطان من شراء امرأة كان قد تزوجها من قبل ثم وقعت أسيرة في يد الصليبيين فاشتراها بخمسمائة دينار وردها إلى أهلها[4].

(1) فؤاد عبد الرحيم الدويكات؛ الأسيرات المسلمات ومعاملتهن لدى الصليبيين في بلاد الشام (490- 583هـ/ 1096- 1187م)، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 77، يونيو 2019م، ص673- 675.

(2) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص209- 217.

(3) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص158.

(4) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص143- 144.

ثانيًا: نخوة رجال الصليبيين:

يذكر أسامة بن منقذ أكثر من مشهد يعبر عن انعدام النخوة والغيرة لدي كثير من الصليبيين في بلاد الشام؛ فلا يحافظ الرجل على حرمة أهل بيته من النساء فإذا مشى مع امرأته وقابله رجل آخر يأخذ المرأة على أحد جانبي الطريق ليتحدث معها على انفراد، وزوجها واقف جانبًا ينتظر فراغها من الحديث؛ وإذا طال الحديث بينهما تركها مع المتحدِّث ومضى[1]، وفي ظل مجتمعات العولمة يفسر البعض هذا الأمر بحرية المرأة وترك مساحة لها للتعامل مع الآخرين، ولكن ألا يتساءل هؤلاء الرجال عن مضمون الحديث بين امرأته ورجل غريب وأبعاد العلاقة بينهما؟! ومن خلال المشاهد التالية التي قصها أسامة بن منقذ في كتابه؛ تؤكد أن الإفرنج لا غيرة ولا نخوة عندهم.

عندما جاء في أحد الأيام إلى نابلس –وكانت تدخل في مملكة بيت المقدس وقت احتلال الصليبيين لها– وكان يسكن في إحدى الدور التي بناها المسلمون والمطلة على الشارع ويقابلها في الجهة الأخرى من الشارع دار لتاجر نبيذ إفرنجي وإذا بالإفرنجي في أحد الأيام يدخل داره يجد رجلًا في فراشه مع زوجته، وتعجب أسامة من رد فعل تاجر النبيذ، عندما سأل الرجل عمَّا أدخله بيته وفراشه مع امرأته؛ ليرد عليه الرجل "كنت تعبان فدخلت أستريح فوجدت فراشًا مفروشًا نمت فيه، أما المرأة فالفراش ملكها وما كنت أقدر أمنعها من فراشها"، فرد عليه التاجر "وحق ديني؛ إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت"[2]، وكان ذلك رد فعله ومبلغ غيرة التاجر على زوجته.

كان لوالد أسامة حمام ويعمل فيه رجل يُدعى سالم، كان يعمل في حمام بمعرة النعمان[3]، وقص على أسامة أنه عندما كان يعمل في حمام[4] المعرة، دخل عليه فارس من

(1) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص224.

(2) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص224– 225.

(3) ياقوت الحموي (شهاب الدين بن عبد الله) (ت. 626هـ/ 1229م)؛ معجم البلدان، تحقيق؛ مزيد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.، جزء5، ص182

(4) لا عجب أن الصليبيين قد تأثروا بعادات المسلمين واستخدموا الحمامات واعتنوا بالنظافة الشخصية؛ حيث اشتهرت بلاد الشام بكثرة حماماتها العامة؛ حيث ارتبط ذلك بالعقيدة الإسلامية وما تحتمه على المسلمين من الطهارة والوضوء، فذكر ابن جبير أن مدينة دمشق كانت تضم أكثر من 100 حمام و40 دار للوضوء، ابن جبير؛ رحلة ابن جبير، ص261.

الإفرنج وطلب منه حلق عانة زوجته؛ وجلس يشاهده وهو يقوم بذلك وبعد انتهائه شكره الفارس ووهبه حق خدمته، فيتعجب أسامة من حديث سالم وما فيه من اختلاف عظيم بين انعدام النخوة والغيرة عندهم وما يتحلون به من شجاعة وإقدام وقت المعركة، وأن الشجاعة لا تكون إلا من النخوة[1].

المشهد الثالث؛ عندما كان أسامة في مدينة صور وهي من أعمال مملكة بيت المقدس أيضًا آنذاك بعد احتلالها سنة 518هـ، دخل أسامة أحد حمامات المدينة، وإذا بالغلمان يخبروه أن معهم في الحمام امرأة، وعندما خرج أسامة من المغطس وجلس على المصطبة – والتي تستخدم عادة للتدليك أو لتنشيف الأبدان وارتداء الملابس– وجد المرأة قد خرجت ولبست ثيابها بصحبة والدها؛ وعندما استنكر أسامة الموقف قال أبوها "هذه ابنتي، ماتت أمها وما لها من يغسل رأسها، فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسها"[2].

على الرغم مما نقله أسامة بن منقذ عن الانحلال الأخلاقي في المجتمع الصليبي واهتزاز النخوة في رجالهم؛ إلا أن المؤرخين الصليبيين يحاولون إظهار صورة خلاف ذلك للصليبيين؛ فعندما تحدث وِلْيَم الصوري عن الغارة التي شنها بلدوين الأول على شرق الأردن وقتل عددًا كبيرًا من الرجال وأسر النساء والأطفال واستولى على جميع ممتلكاتهم بل وأخذ كذلك الماشية والدواب، وهو في طريق عودته إذا بإحدى الأسيرات قد جاءها المخاض ووضعت طفلاً وعندما علم بلدوين بالأمر أمر بإنزالها من على الجمل وإحضار سرير لها وخصص لها خادمة لخدمتها وجملان تتغذى على حليبهما ولفها بلدوين بالعباءة التي كان يرتديها[3]، ومع التحقق من هذه الرواية التاريخية التي قصها وِلْيَم الصوري في كتابه كمحاولة لإظهار شهامة ومروءة بلدوين الأول؛ نجد أنها مناقضة تمامًا للواقع والحقائق التاريخية؛ فبلدوين الأول عرف عنه جشعة وحبه للمال، إلا أن معرفة حقيقة شخصية تلك الأسيرة وأنها كانت امرأة ذات منزلة سامية وزوجة أحد الزعماء الأقوياء من ذوي النفوذ ربما يفسر الدافع

(1) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص225– 226.

(2) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص224– 225.

(3) وِلْيَم الصوري؛ تاريخ الحروب الصليبية، ص489– 490.

الـذي دفـع بلـدوين لهـذا الأمـر –إن صـحت الروايـة– فقـد كـان مـن بـين طـرق تحريـر الأسـرى مقايضـتهم بالمـال أو بأسـرى صـليبيين وبمـا أن المـرأة تعـد زوجـة زعـيم قـوي فـيمكن اسـتخدامها للضغط عليه للحصول على أقصى استفادة ممكنة[1].

❖ **الحياة اليومية والترفيه** (رحلات الصيد ومظاهر اللهو والاحتفالات):

تـأثر الصـليبيون مـع طـول مـدة اسـتيطانهم بـبلاد الشـام بمظـاهر احتفـالات المسـلمين ورحـلات الصـيد، فمـن الأمـور المشـتركة بـين الإفـرنج والمسـلمين رحـلات الصـيد التـي يقومـون بهـا فـي المقاطعـات والإمـارات المشـتركة، إضـافة إلـى قيـام بعـض المباريـات والسـباقات الرياضـية كسـباق الخيـل والمبـارزة بالرمـاح وغيرهـا مـن السـباقات التـي وطـدت العلاقـات بـين الحجـاج المسـيحيين والإفـرنج وبـين المسـلمين فـي بـلاد الشـام[2]، تلـك الرياضـة والألعـاب كانـت تعتمـد علـى مـا تـوفره البيئـة العربيـة، أي أنهـا لـم تكـن معروفـة بـبلاد الإفـرنج وقـد تـأثر الصـليبيون بالمسلمين نتيجة للاحتكاك والتعايش السلمي بين الطرفين خلال مدة طويلة من الزمن[3].

هـذه وقـد أخـذ الصـليبيون عـن المسـلمين العديـد مـن مظـاهر الحيـاة الاجتماعيـة فـي المناسـبات والاحتفـالات المختلفـة مثـل: لـبس خـاتم الـزواج والـذي لـم يكـن معروفًـا لـديهم، وارتـدوا الـزي الشـرقي ذا الأكمـام الواسـعة، كمـا أنهـم اسـتخدموا فـي احتفـالاتهم الآلات الموسـيقية العربيـة، وأكلـوا الطعـام الشـرقي، واسـتعملوا البهـارات وغيرهـا[4]، وهـو مـا تؤكـده روايـة أسـامة بـن منقـذ السـابق ذكرهـا مـع الفـارس الصـليبي بمدينـة أنطاكيـة والـذي دعـا أسـامة للطعـام وأبلغـه أنـه طعـام شرقي وأن القائم على تحضيره طباخات مصريات وأنه لا يأكل طعام الإفرنج[5].

وعلـى جانـب آخـر نجـد أسـامة بـن منقـذ يقـص فـي كتابـه عنـد زيارتـه لطبريـة مسـتنكرًا علـيهم أنـه فـي عيـد مـن أعيـاد الصـليبيين يجـد الفرسـان قـد خرجـوا يلعبـون بالرمـاح وخـرج معهـم

(1) أنَّا كومنينا؛ ألكسياد، ترجمة؛ حسن حبشي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1 2004م، ص390– 391.

(2) ياسمين وحيد هلال؛ المؤثرات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين في العصور الوسطى، مجلة المنافذ الثقافية، العدد 51 لسنة 2025م، ص333، وللمزيد راجع؛ أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص295 وما بعدها.

(3) زكي النقاش؛ العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1958م، ص149.

(4) حسان حلاق؛ العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب، في العصور الوسطى (الأندلس، صقلية، الشام)، مكتبة الدار الجامعية، بيروت 1986م، ص193.

(5) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص231– 232.

عجوزان بلغتا من السن أرذله؛ أوقفهما الفرسان في طرف الميدان وفي الطرف الآخر على صخرة وضعوا خنزيرًا مشويًا ونظموا سباق بين العجوزان للوصول إلى الخنزير وظل العجائز يقمن ويقعن حتى سبقت إحداهما الأخرى في ظل ضحك الفرسان من حولهم[1]، ولا عجب في استنكار ابن منقذ من فعلتهم فهو أمر لا يتماشى مع تعاليم الدين الإسلامي ولا المسيحي ولا حتى قيم وعادات المجتمع الشرقي والتي تنص جميعها على توقير واحترام الكبير.

من العلاقات الإنسانية التي تخللت أحداث القتال بين المسلمين والصلبيين، ما ذكره رانسيمان عندما عسكر صلاح الدين الأيوبي بجنوده أمام أسوار حصن الكرك في عام 579هـ/ 1183م، فقد تصادف وجود احتفال بعقد قران داخل الحصن؛ وبينما تتعرض أسوار الحصن للقذف بالمنجنيق لم يُقطع الاحتفال واستمر الرقص والغناء، بل حدث أن قامت أم العريس بإعداد صحون من طعام العريس وأهدته إلى صلاح الدين وفي مقابل ذلك أرسل صلاح الدين يسأل بأي الأبراج ينزل العروسان، ثم أصدر أوامره بألا يتعرض هذا البرج للقذف من أدوات الحصار، وفيما عدا ذلك لم يخفف صلاح الدين جهوده الحربية[2]. تؤكد هذه الرواية –إذا صحت– غلبه الطابع الإنساني للمسلمين حتى في أشد الظروف في ظل معركة حربية على العكس من همجية الصليبيين عند غزوهم لبلاد المسلمين، وأن المسلمين لم يغلب عليهم طابع الانتقام والتنكيل بالصليبيين عند حملات تحرير بلادهم من يد أيديهم تفعيلًا للسماحة والرحمة في المعارك التي أوصى بها الرسول –صلى الله عليه وسلم–، كذلك يستشف من الرواية أن الصليبيين نفسهم أمنوا على أرواحهم من صلاح الدين وأيقنوا أنهم لن يصيبهم أذى طالما هم مسالمون[3].

❖ دور ومكانة وتأثير المرأة في المجتمعين الإسلامي والصليبي خلال الحروب الصليبية:

(1) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص227– 228.

(2) ستيفن رانسيمان؛ تاريخ الحملات الصليبية من كليرمونت إلى أورشليم، ترجمة؛ نور الدين خليل، ط2، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 1994م، ج2، ص711– 712.

(3) وكان ذلك تصديقًا للآية الكريمة "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" سورة البقرة، آية 190، وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يؤكد على ذلك كل غزة؛ فقد روي عن ابن عباس . رضي الله عنه . قال: كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا بعث جيوشه قال: (اخرجوا بسم الله، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع) رواه أحمد في مسنده/ 2728.

أولًا: المرأة المسلمة:

برز دور النساء المسلمات في الحياة العامة في الميادين المختلفة عبر العصور التاريخية، وإبان الحروب الصليبية سعت المرأة المسلمة إلى تأكيد حضورها الإيجابي وبرز دورها في المواجهة والتصدي للخطر الصليبي[1]، ووفقًا للمصادر التاريخية المعاصرة لم تسلم المرأة المسلمة من ويلات الحروب الصليبية؛ فيذكر وِلْيَم الصوري عن أحداث غزو أنطاكية أن الصليبيين قد تملكتهم شهوة القتل الجنونية والتي صحبها الجشع والنهب ولم يستثنوا أحدًا من القتل لا الجنس ولا السن ولا المنزلة الاجتماعية فقتلوا النساء والأطفال والشيوخ وقتلوا النبلاء والعبيد وانتشرت جثث الموتى وأشلاؤهم في شوارع المدينة، ويذكر وِلْيَم أنه قد قتل من أهل أنطاكية في ذلك اليوم أكثر من عشرة آلاف[2]. وتكرر الأمر نفسه من الوحشية في غزو العديد من مدن بلاد الشام ففي بلدة "البارة" قتل الإفرنج كل من وجدوه من المسلمين من الرجال والنساء على اختلاف أعمارهم، وحدث الأمر نفسه في "معرة النعمان" فيذكر أنه لم يخل ركن من أركان المدينة من جثث المسلمين، وكان يضطر المارة في الشوارع على أن يخطوا فوق جثث الموتى لكثرتها في شوارع المدينة[3].

مما سبق ذكره نجد أن ويلات الحروب الصليبية وما تبعها من قتل وتنكيل وتعصب وكراهية للمسلمين لم تفرق بين الرجال والنساء؛ ومن ثَّم قامت المرأة المسلمة بدور بارز في التصدي للصليبين ومؤازرة الرجال في المعارك وحثهم على القتال، فيذكر أسامة بن منقذ في كتابه أكثر من موقف يؤكد على مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي ببلاد الشام، وما قمن به النسوة في بعض المعارك للتصدي للأعداء؛ وما حملنه من نخوة تضاهي نخوة الرجال، منه ما ذكره عن دور ابنه ليث الدولة يحيى في قلعة شيزر خلال غزو الإسماعيلية للقلعة فقد ارتدت ملابس الفرسان وتصدت للمعتدين؛ بل ومنعت ابن عمها علوان بن حراز من الفرار من المعركة وحثته على القتال[4]، ومنه أيضًا ما رواه أسامة بن منقذ في أثناء مهاجمة

(1) فؤاد عبد الرحيم الدويكات؛ الأسيرات المسلمات، ص661.

(2) وِلْيَم الصوري؛ تاريخ الحروب الصليبية، الأعمال المُنجزة، ص330

(3) بطرس توديبود؛ تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1998م، ط1، ص257، 262.

(4) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص209– 210.

الإسماعيلية لقلعة شيزر عندما دخل ليتزود بالعتاد الحربي ما أقدمت عليه أمه من تأهب لقتل بنتها تفضيلاً على أن تقع في الأسر إذا ما سقطت القلعة؛ فقد قامت بوضعها في إحدى رواشن القلعة وعندما دخل أسامة وسأل عن سبب جلوس أخته في الروشن قالت "يا بني أجلستها على الروشن وجلست بَرّا منها. إذا رأيت الباطنية (الإسماعيلية)[1] قد وصلوا إلينا، دفعتها إلى الوادي، فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلّاجين مأسورة". كما تلثمت في ذلك اليوم امرأة عجوز وأخذت سيفًا وخرجت إلى القتال[2].

من ما ذكره أيضًا أسامة بن منقذ عن نخوة النساء ومشاركتهن في مجريات الصراع بين المسلمين والصليبيين ما قامت به زوجة رجل يُدعى علي من أصحاب خَلَف بن مُلاعب والذي عُرف عنه حدة بصره فكان يُبصر القوافل على مسيرة يوم كامل، وكان يخدم في المسلمين؛ إلا أنه انقلب عليهم وخدم "توفيل" الإفرنجي صاحب كفر طاب شمالي حماة، وبدأ مساعدة الإفرنج على قوافل المسلمين وإيذائهم وأخذ مالهم وسفك دماءهم، حتى دبرت زوجته لمقتله بصحبة أخيها، ثم حملا مال "علي" إلى شيزر وقالت "غضبت للمسلمين مما كان يفعل هذا الكافر، فأرحت الناس من هذا الشيطان" [3].

مما ذكره أسامة أيضًا عند عودة قافلة حجاج صليبين ما بين سبعمائة إلى ثمانمائة بين رجال ونساء وتوجههم إلى رَفَنيّة –وكانت من أراضي الصليبيين وقتها– فدخلوا شيزر عند عودتهم واصطدموا بالمسلمين في ظل غياب جند المدينة لخروجهم مع قائدهم عز الدين أبي العساكر، خرج أهالي شيزر وحملوا على الإفرنج وقتلوا منهم عددًا كبيرًا وغنموا ما كان معهم، ومن بين المسلمين امرأة أسرت ثلاثة رجال واحدًا تلو الآخر وأدخلتهم بيتها وغنمت ما كان معهم ثم دعت قومًا من جيرانها فقتلوهم[4].

(1) أدى الشيعة الإسماعيلية أو الباطنية في الحياة السياسية والاجتماعية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، وكانوا يقطنون قلاع حصينة في سفح جبل لبنان مثل المعرة وسلمية ومصياف، وهي المنطقة الفاصلة بين المسلمين والصليبيين، ومن هذه القلاع كانت تنطلق هجماتهم نحو المسلمين السنة بهدف الاغتيال، وأحيانًا كانت هجماتهم تجاه الصليبيين الذين تأرجحت علاقتهم بهم بين التحالف والمعادة، قاسم عبده قاسم؛ بعض مظاهر الحياة الاجتماعية، ص371.

(2) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص210– 211.

(3) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص215.

(4) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص216– 217.

لم تكن مهمة التصدي للحملات الصليبية قاصرة على الرجال فقد بلورت الأحداث التاريخية دور المرأة في دعم الرجال خلال المعارك مع الصليبين وتحفيزهم على القتال؛ بل والمشاركة أحيانًا في أرض المعركة؛ وذلك وفقًا لروايات المؤرخين الصليبيين أنفسهم فيذكر وِلْيَم الصوري في كتابه أنه في أثناء حصار بيت المقدس شوهد عدد من النساء أعلى سور المدينة لمهمة تعطيل آلات الصليبيين الحربية الفتاكة –على حد روايته أنهن كُنَّ من المشعوذات؛ وهو أمر غير مقبول يدل على تأثر فكرهم بالأساطير والخرافات– وقد انتهى الأمر بهؤلاء النسوة فقتلهم بمقذوفات هذه الآلات[1]، وهناك العديد من الروايات التاريخية التي تؤكد مشاركة القدسيات في الدفاع عن بيت المقدس 492هـ/ 1099م، من خلال الخدمة في الصفوف الخلفية وخدمة المقاتلين من تقديم الماء وتطبيب الجرحى ودفن الموتى؛ وكذلك إثارة همم الرجال وإشعال نار الحماسة والنخوة في صدورهن من أجل الدفاع عن المدينة وعنهن من السقوط في الأسر؛ وذلك من خلال ارتقاء نسوة المدينة أسطح بيوتهن وأنشدن الأغنيات وفقًا لرواية المؤرخ الصليبي أوردريك فيتالي (Ordric Vitalis) [2].

استخدمت نساء المسلمين في المجتمعات الصليبية في بلاد الشام للخدمة والطبخ وهو ما أورده أسامة بن منقذ عندما تحدث عن صديقه الفارس الإفرنجي بمدينة أنطاكية حينما دعا أسامة إلى الطعام، ولم يجد منه إقبالاً عليه أبلغه أن من يعد الطعام له طباخات مصريات وأنه لا يُدخل لحم الخنزير في بيته[3]، يؤكد ذلك أيضًا ما أورده الشارتري بأن الإفرنج عندما استولوا على مدينة قيسارية عام 499هـ/ 1105م قد أبقوا على حياة النساء المسلمات لإدارة الطواحين والعمل في بيوت الصليبيين طباخات وخدم[4].

ثانيًا: المرأة الإفرنجية:

(1) وِلْيَم الصوري؛ تاريخ الحروب الصليبية، الأعمال المنجزة، ج1، ص431.

(2) أوردريك فيتالي؛ التاريخ الكنسي، ترجمة؛ سهيل زكار، دار التكوين للطباعة والنشر، دمشق 2008م، ط1، ص115– 116.

(3) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص231– 232.

(4) فوشيه الشارتري؛ تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة؛ زياد العسلي، دار الشروق عمان– الأردن، ط1 1990م، ص115.

أدت المرأة الصليبية دورًا بارزًا في مجال الحياة السياسية والاجتماعية في بلاد الشام؛ فبمقتضى قوانين المحكمة العليا كان يحق للأرملة بعد وفاة زوجها أن ترث نصف ثروته وأن تتحكم بالنصف الآخر باعتبارها قيِّمة على أطفالها، ومنهن من تقلد السلطة السياسية بعد وفاة أزواجهن، ويُذكر أن "أليس Alisa" ابنة بلدوين الثاني ملك مملكة بيت المقدس وزوجة بوهمند الثاني حاكم أنطاكية بعد وفاة زوجها بادرت بأن تتولى بنفسها الوصاية على مدينة أنطاكية[1].

نجد أن المرأة الإفرنجية كان لها دور أيضًا في مؤازرة الصليبين في المعارك، ومما ذكره أسامة بن منقذ في كتابه؛ عندا سأل رجلاً يدعى "ندى الصُّلَحي" ووجد ندبة في وجهه وعندما سأله عنها قص عليه أنه عندما كان شابًا في عسقلان يقوم بالإغارة على قوافل الإفرنج فتبارز مع رجل إفرنجي مرة حتى قتله فمشت إليه زوجته التي كان يصحبها في القافلة وضربته بكوز من الخشب –كانت تحمله– في وجهه فجرحته هذا الجرح[2].

وذكر ابن منقذ أيضًا في واقعة دخول قافلة الحجاج الإفرنج لشيزر وانتصار أهل المدينة عليهم وأسر عدد كبير منهم في غياب جيشها كما سبق الذكر، وكان من بين الأسرى عدد من الجواري والتي أَمر عز الدين أبو العساكر –عم أسامة بن منقذ وأمير شيزر بعد أن تنازل عنها له والد أسامة– بتجهيز إحداهم وإهدائها لشهاب الدين مالك بن سالك صاحب قلعة جَعْبَر على نهر الفرات، فاتخذها شهاب الدين لنفسه وأنجب منها ولده وولي عهده بدران ودارت الأيام ومات شهاب وأصبح بدران أمير البلد وأمه أصبحت الآمرة الناهية، إلا أنها ما لبست بعد كل ما وصلت إليه أن دبرت وواعدت قومًا من الإفرنج وهربت من القلعة بحبل وتوجهت إلى مدينة سَروج– وهي تحت قبضة الإفرنج حين ذاك– وتزوجت بإسكاف بعد أن كانت أميرة في أرض المسلمين[3]. لم تكن هذه هي الحادثة الوحيدة التي ذكرها ابن منقذ عن

(1) فايزة عبد الرحمن حجازي؛ بعض الجوانب من حياة المرأة الإفرنجية في بلاد الشام في الفترة ما بين (492– 583هـ/ 1099– 1187م)، مجلة التربية– جامعة الأزهر، ع151، ج2، ديسمبر 2012م، ص447– 448.

(2) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص216.

(3) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص217– 218.

ارتداد الصليبيين؛ فقد كان من بين الأسرى الذين صاروا إلى دار والد أسامة بن منقذ امرأة عجوز ومعها بنتها وابنها الذي أسلم وحسُن إسلامه على ما كان ظاهرًا من حسن صلاته وصيامه؛ فقام أبو أسامة وزوجه من امرأة من قوم صالحين ورتب له كل ما يحتاج له من عُرسه وبيته؛ إلا أنه بعد مدة وبعد أن أنجب فرَّ إلى أراضي الإفرنج وتنصر هو وأولاده بعد إسلامه وصلاته[1].

من الجدير بالذكر أن المرأة الصليبية قد تشبهت بالمرأة العربية في لباسها وزينتها من خلال المجوهرات ومساحيق وأدوات الزينة والكحل والمرايا الزجاجية وغيرها، كما قلدن النساء المسلمات في لبس الخمار وأن لم يكن الدافع في لبسه هو الدافع الديني والعفة؛ وإنما كان بدافع حماية بشرتهن من أشعة الشمس[2].

على الرغم من أن المرأة الإفرنجية قد تأثرت كثيرًا بالمرأة العربية؛ إلا أنه أثرت كذلك المجتمع العربي من خلال تغير معايير الجمال لدى البعض؛ وهو ما يؤكده الإنتاج الأدبي العربي في بلاد الشام في العصور الوسطى؛ فأصبحت النسوة الإفرنجية مصدرًا لإيحاء الأدباء بما أدخلنه من موضات وأنواع ملابس وتسريحات شعر جديدة، فظهرت العديد من القصائد الشعرية في وصف الإفرنجيات[3].

❖ ملامح التأثير والتأثر الاجتماعي والحضاري بين المسلمين والصليبيين:

وصفت بعض الدراسات الأوروبية والعربية الصليبيين بأنهم تحولوا إلى مشرقيين بطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم –على الرغم من أصولهم الأوروبية– ويرجع الفضل إلى ذلك العلاقات بين الصليبيين والمسلمين؛ خاصة العلاقات الاجتماعية بين الطرفين؛ فقد عزز ذلك الأمر الزيجات المتبادلة بين الطرفين؛ فقد شهد العقد الثاني من عمر الممالك الصليبية ببلاد الشام حدوث تغير ملحوظ في سياستهم التعسفية القائمة على إبادة السكان وتفريغ الأرض، سواء بارتكاب المجازر والمذابح أو بعمليات الطرد والتهجير القسري فطول فترة التعامل بين

(1) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص218– 219.

(2) ستيفن رانسيمان؛ تاريخ الحملات الصليبية، ص366.

(3) فايزة عبد الرحمن حجازي؛ بعض الجوانب من حياة المرأة الإفرنجية، ص450– 451.

المسلمين والصليبيين الذين جاءوا في الحملات الأولى، واستقروا في بلاد الشام وعاشروا المسلمين؛ أدى إلى قيام علاقات إنسانية بينهم، حيث يذكر فوشيه الشارتري: "إن أولئك الذين كانوا غربيين أصبحوا الآن شرقيين"[1].

وعلى عكس سكان المدن؛ يُذكر أن مجتمع بدو بلاد الشام كان أقل تأثرًا بالصراع بين المسلمين والصليبيين وذلك لموقعهم على هامش منطق الصراع في مناطق صحراوية نائية، على عكس الفلاحين الذين تمسكوا بأرضهم وديارهم في المناطق الفاصلة بين المسلمين والصليبيين؛ وعلى الأغلب ذلك ما دفع إلى التعايش السلمي بين الطرفين وأن يكون حكم بعض قرى بلاد الشام مناصفة؛ ومن أمثلة التعايش السلمي بين المسلمين والصليبيين ما قام به سكان دمشق من مناصفة أراضيهم الزراعية بينهم وبين الصليبيين، وكذلك ما كانت تقتضيه الضرورة الاقتصادية من أجل الحفاظ على أمن وسلامة الطرق التجارية والقوافل في عكا، وهو ما أدى إلى ازدهار اقتصادي نسبي خلال فترات التعايش السلمي **أعقبها علاقات اجتماعية بين الطرفين**؛ إلا أنه لم يلبث وانهارت تلك العلاقات نتيجة لحركات التحرير التي قادها صلاح الدين الأيوبي، وكذلك أحداث الحملة الصليبية الثالثة[2].

أثرت الحياة في مدن بلاد الشام على الإفرنج تأثيرًا قويًا في شتى مجالات الحياة الاجتماعية، فمن حيث **المسكن**؛ فقد سكن الصليبيون المنازل العربية واعتادوا عليها وفقًا لرواية فوشيه الشارتري عندما ذكر "... إذ إننا نحن الغربيين صرنا الآن شرقيين ... وتزوج البعض من غير جنسهم من السوريات المسيحيات أو من المسلمات اللاتي تنصرن ... وأصبح لهم ضيعات ومنازل ومزارع فأولئك الذين كانوا فقراء في الغرب أغناهم الرب في الشرق ومن كانت نقودهم قليلة هناك يمتلكون الآن أموالًا لا تحصى، والذين لم يكن لهم سكن هناك يمتلكون مدينة هنا بفضل الرب فلماذا يرجع المرء إذن إلى الغرب إذا كان قد وجد في

(1) فوشيه الشارتري؛ تاريخ الحملة إلى القدس، ص٢١٨، وللمزيد راجع فريد وحيد صيدم؛ العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين في مملكة بيت المقدس، ص٢٦٤.

(2) قاسم عبده قاسم؛ ماهية الحروب الصليبية، ص202.

الشرق كل هذا النعيم..." [1]، يؤكد ذلك الرواية العربية لابن جبير عندما زار مدينة صور والتي كانت تحت السيطرة الصليبية في القرن 6هـ/ 12م، وقد لاحظ أن مساكنها التي استولى عليها الصليبيون كانت فسيحة على الطراز العربي والذي يناسب البيئة[2].

وكانت أساسات المنازل بسيطة، وكان الصليبيون يقلدون المسلمين في الجلوس على البسط أو الحصير ولم يستخدموا المقاعد أو الأرائك عند تناول الطعام، وكانت المائدة قوامها كرسي منخفض يوضع عليه أواني الطعام يسمح بسهولة حركة الجالسين، وهي الأرائك التي استخدمها الصليبيون أيضًا –بدلًا من منضدة السفرة المرتفعة المتعارف عليها في أوروبا– كذلك قلدوا المسلمين في الأواني والأوعية المصنوعة من الخشب أو الفخار، وكذلك خزانات الملابس في البيوت والتي كانت عبارة عن دخلات مجوفة في جدران الغرف والقاعات[3].

وقد سبق وأن أوضحت الدراسة مدى تأثر الصليبيين **بالحمامات العامة** في بلاد الشام، وكيف اعتادوا عليها وأصبحت جانبا مهما من نمط حياتهم الشخصية لدرجة أن أحد الأساقفة القادمين من أوروبا قد استنكر هذا الأمر على الصليبيين الذين باتوا معتادين على الحمامات والثياب الناعمة لدرجة أنها أصابت الرهبان والراهبات أيضًا، تأثر ذوق الصليبيين كذلك **بقائمة الطعام** العربية والتي أصبحت مفضلة عن غيرها لدرجة أن البعض ترك أكل الخنزير وحرص على جلب طباخات مصريات لإعداد الطعام له كما ورد في رواية أسامة بن منقذ سابقة الذكر[4]، وقد نتج عن طول إقامة الصليبيين في بلاد الشام أن تغير ذوقهم في الطعام والشراب وخاصة فيما يتعلق بإضافة التوابل والسكر في طعامهم وشرابهم، وقد عرف الفرنجة السكر لأول مرة في حياتهم في بلاد الشام ليحل محل عسل النحل والذي لم تعرف أوروبا غيره في تحلية طعامهم، كما شربوا القهوة العربية وأصبحت شراب غالبيتهم[5].

(1) فوشيه الشارتري؛ تاريخ الحملة إلى القدس، ص٢١٨.

(2) ابن جبير؛ رحلة بن جبير، ص277.

(3) قاسم عبده قاسم؛ بعض مظاهر الحياة الاجتماعية، ص392.

(4) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص231– 232.

(5) وفاء شابو وأميرة بو زهير؛ أثر الصراع الإسلامي الصليبي في بلاد الشام على الحياة الاجتماعية والدينية خلال القرن 5–6هـ/ 11–12م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ– كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة 8 ماي 1945– الجزائر، 2022م، ص73.

أما فيما يتعلق **بالمظهر الشخصي والملابس**[1]، فقد اعتاد الصليبيون على الظهور بالذي الأوروبي ذي الأكمام الضيقة بدون غطاء رأس وقد حلقوا الشارب واللحية، أما العرب من المسلمين والمسيحيين من أهل بلاد الشام فكانوا يلبسون الملابس العربية الفضفاضة وغطاء رأس ويطلقون اللحية[2]، وفي بعض الأحيان كانت المرأة الإفرنجية ترتدي الحجاب من باب الحماية من أشعة الشمس –كما سبق ذكره–، وعلى الجانب الآخر فلم يتأثر المسلمون بالملابس الإفرنجية إلا من خلال تغيير بعض معايير الجمال وصبحت مصدر إلهام للشعراء والأدباء[3].

كما تأثر المستوطنون الصليبيون من الرجال أيضًا في بلاد الشام بالعادات والتقاليد الشرقية من حيث اللباس؛ فلبسوا الملابس الفاخرة تشبهًا بالمسلمين واهتموا بأدوات الزينة والتطيب وارتدوا برنسًا من الحرير واتخذوا عادة العمامة فوق رؤوسهم وعند خروجهم للقتال ارتدى فوق درعه سترة من الكتان لوقاية الرأس من حرارة الشمس مثلما يفعل الفارس العربي[4].

كما أقبل الصليبيون على شراء الأقمشة الدمشقية والحلبية والعراقية واستخدموا البسط والسجاد في منازلهم، واستعملوا النعال التي يستخدمها المسلمون في بيوتهم، لدرجة أن ملك القدس بلدوين الأول قد استبدل ثيابه الغربية بأخرى شرقية؛ كما ارتدى الملك الفرنسي هنري الشامبني الملابس الشرقية التي أرسلها صلاح الدين إليه وكانت عبارة عن قباء وبرنوس وفرح بها الملك هنري وقام بلبسها من باب إظهار الود والصداقة على الرغم من أنه كان لا

(1) تنوعت ملابس الرجال والنساء من أهل الشام خلال فترة الحروب الصليبية تبعًا للطبقات الاجتماعية حيث اختلفت ملابس طبقة العامة عن طبقة الحكام والأعيان كما اختلفت ملابس أهل المدن عن ملابس أهل الريف، للمزيد راجع؛ أحمد رمضان أحمد محمد؛ المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية، القاهرة 1977م، ص 258– 288.

(2) قاسم عبده قاسم؛ بعض مظاهر الحياة الاجتماعية، ص393.

(3) فايزة عبد الرحمن حجازي؛ بعض الجوانب من حياة المرأة الإفرنجية، ص450– 451.

(4) ستيفن رانسيمان؛ تاريخ الحملات الصليبية، ص506– 509.

يدين لصلاح الدين بالولاء وقال له "أنت تعلم أن لبس القباء عندنا عيب وأنا ألبسها منك محبة"[1].

من بين أبرز المؤثرات على المجتمع الصليبي، هو التغلب على حاجز اللغة، فنجد كثيرًا من الصليبيين قد أجادوا **اللغة العربية** فيذكر ابن جبير أن رجال الجمارك في عكا كانوا يكتبون ويتكلمون باللغة العربية، كذلك الأمر بالنسبة لوليم الصوري الذي يستشف من كتاباته مدى إجادته للغة العربية، كذلك كان الأمر بالنسبة لفرسان الإستبارية والداوية وكبار موظفي البلاط بمملكة بيت المقدس، ومن خلال الرواية التي قصها أسامة بن منقذ عندما قدم إلى بيت المقدس واعتاد أن يصلي بمسجد صغير إلى جواره كانت فرقة الداوية قد اتخذوها مركزاً لهم وذلك أنه كان على علاقة جيدة معهم ويتركون له المسجد للصلاة، يستشف من روايته أنه كان هناك لغة تواصل بينهم سمحت لتكوين صداقات بينهم وهو ما يؤكد أنهم كانوا يجيدون العربية[2].

أما فيما يتعلق بعلم **الطب** في المجتمعين الإسلامي والصليبي فليس أدل على تقدم المسلمين في علم الطب على العكس من الصليبيين، ما شهد عليه الصليبيين أنفسهم عندما كانوا يطلبون أطباء مسلمين ليعالجوهم؛ ومنهم صاحب المُنَيْطِرة عندما كتب إلى عم أسامة بن منقذ يطلب منه إرسال طبيب يداوي مرضي من أصحابه فأرسل لهم طبيب نصرانيًا يُدعى "ثابت"[3]، ولعل من أشهر حالات تطبيب الصليبيين على يد المسلمين ما قام به صلاح الدين الأيوبي من إرسال طبيبه الخاص لعلاج ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا.

وعلى الجانب الآخر ذكر ابن منقذ في كتابه عددًا من المشاهد التي تدل على قلة دراية الإفرنج بالطب؛ منها ما رواه على لسان صاحب طبرية عندما أخبره أنه كان عندهم فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت وجاءوا له بقس كبير ليعالجه؛ وإذا بالقس

(1) وفاء شابو وأميرة بو زهير؛ أثر الصراع الإسلامي الصليبي، ص73. وللمزيد راجع؛ ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم) (ت.630هـ/ 1233م)؛ الكامل في التاريخ، تحقيق؛ عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية– بيروت، ط2، 1415هـ/ 1994م، ج9، ص213.

(2) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص225.

(3) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص220.

يطلب منهم شمعًا فعمل منه إصبعين ووضعهما في أنفه حتى مات الفارس مبررًا فعلته بأنه كان يخفف عنه ألمه[1]. ومنها أيضًا ما ذكره الطبيب ثابت –أحد أطباء مدينة شيزر– عن عجيب طبهم وما وصلوا له من جهل عندما جاء طبيب إفرنجي وقتل رجلاً وامرأة مريضين بتصرف غريب بعيد كل البعد عن علوم الطب[2].

ذكر أسامة موقفين آخرين لحسن طب الصليبيين ما شاهده بنفسه من رجل مريض وقد ظهر في قدمه خراريج خطيرة كادت أن تنهي حياته حتى جاء طبيب إفرنجي وعالجه بالخل الحاذق، ورجل آخر من المسلمين بشيزر له ابن مريض بخراريج خطيرة أيضًا وعند زيارته لأنطاكية شاهده رجل إفرنجي ووصف له علاج وأوصاه ألا يأخذ من أحد يعالجه به أجرة[3].

وقد كان لنشأة المدارس والبيمارستانات (المستشفيات) في بلاد الشام أبلغ الأثر على نشأة الجامعات الأوروبية، ومن بينها مدرسة الطب بمدينة سالرنو بإيطاليا التي أنشئت في القرن العاشر الميلادي؛ ويذكر علماء غربيون بأنفسهم أن الطب العربي قد أثر من غير شك في نشأة هذه المدرسة إن لم يكن سببًا لانتقال علم الطب إلى أوروبا، كما تُعد أقدم الجامعات الأوروبية المُنشأة في القرن الثاني عشر الميلادي مدينةٌ بوجودها للعلوم الإسلامية إن لم يكن المسلمون هم من أسسوها[4].

❖ الخاتمة والنتائج:

بعد دراسة الأوضاع الاجتماعية في بلاد الشام إبان فترة الحروب الصليبية ومدى التأثير والتأثر الاجتماعي بين المسلمين والصليبيين من خلال كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ، دراسة تاريخية تحليلية نقدية ومقارنتها مع ما ورد في بعض المصادر العربية والأجنبية الأخرى يمكن استخلاص النتائج التالية:

(1) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص227.

(2) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص220– 221.

(3) أسامة بن منقذ؛ الاعتبار، ص221– 222.

(4) أحمد رمضان أحمد محمد؛ المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص 320– 321.

- أبرزت الدراسة القيمة الاستثنائية لمذكرات ابن منقذ في كتابه "الاعتبار" لرصد التحولات والتفاعلات الاجتماعية ببلاد الشام وفهم طبيعة الحياة اليومية إبان الحروب الصليبية.
- أكدت الدراسة على أن حقبة الحروب الصليبية لم تكن صدامًا عسكريًا محتدمًا مستمرًا؛ بل تخللها فترات من المهادنة التعايش السلمي بين المسلمين والصليبيين.
- أوضحت الدراسة الدور الذي أدّاه نصارى بلاد الشام في تشكيل العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين.
- عددت الدراسة نماذج من العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين مثل الصداقة والزيجات المتبادلية بين المجتمعين.
- أبرزت الدراسة دور المرأة في المجتمعين الإسلامي والصليبي وما قامت به من تأثير في الحياة الاجتماعية والسياسية.
- بينت الدراسة التباين بين المجتمعين الإسلامي والصليبي في بعض القيم الاجتماعية؛ كالغيرة والنخوة والشجاعة والإقدام.
- كشفت الدراسة عن ملامح التأثير والتأثر بين المجتمعين الإسلامي والصليبي ببلاد الشام، وألقت الضوء على انتقال العادات الاجتماعية عبر الحدود، من تطور الملابس وأصناف الطعام إلى الاحتفالات الشعبية ورحلات الصيد المشتركة.

❖ **التوصيات:**

- توصي الدراسة وتؤكد على ضرورة التزام بالمنهج النقدي عند استقاء المعلومات من المصادر الأجنبية المعاصرة للحروب الصليبية، خاصة في دراسة الجوانب الاجتماعية؛ وذلك لما قد يشوبها من مبالغات تاريخية ومجاملات أو أحكام مغلوطة تستوجب التمحيص والمقارنة والنقد.
- توصي الدراسة الباحثين التأكيد على حقيقة أن المهادنة والتعايش السلمي بين المسلمين والصليبيين خلال فترة الحروب الصليبية أو المواقف الإنسانية مع العدو لم يكن نوعًا من

التطبيع مع الصليبيين أو قبولهم والتنازل عن حق المسلمين في أرضهم؛ وإنما اقتضته الضرورة الاقتصادية في كثير من الأوقات وفي بعض الأحيان كان من باب حقن دماء المسلمين ويجب الأخذ في الاعتبار أخلاق المسلمين التي أوصانا بها الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– حتى في وقت الحرب.

❖ قائمة المصادر والمراجع:

- **أولًا: القرآن الكريم:**
- **ثانيًا: الحديث الشريف؛ مسند الإمام أحمد:**
- **ثالثًا: المصادر العربية:**

1. **ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد) (ت. 614هـ/ 1217م)**؛ رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر (د.ت).

2. **ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم) (ت. 630هـ/ 1233م)**؛ الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 1415هـ/ 1994م.

3. **أسامة بن منقذ الكناني الشيرازي (ت. 584هـ/ 1188م)**؛ الاعتبار، مذكرات أسامة بن منقذ في الحروب الصليبية مع ملحقها في أخبار الصالحين ومشاهد الصيد والقنص، تحقيق وتقديم؛ عبد الكريم الأشتر، منشورات المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت 1424هـ/ 2003م.

4. **بهاء الدين ابن شداد (ت. 632هـ/ 1234م)**؛ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق؛ جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي القاهرة، ط2 1415هـ/ 1994م.

5. **ياقوت الحموي (شهاب الدين بن عبد الله) (ت. 626هـ/ 1229م)**؛ معجم البلدان، تحقيق؛ مزيد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

6. **رابعًا: المصادر المعربة:**

7. **أنَّا كومنينا**؛ ألكسياد، ترجمة؛ حسن حبشي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1 2004م.

8. **أوردريك فيتالي**؛ التاريخ الكنسي، ترجمة؛ سهيل زكار، دار التكوين للطباعة والنشر، ط1، دمشق 2008م.

9. **بطرس توديبود**؛ تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1998م.

10. **فوشيه الشارتري**؛ تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة؛ زياد العسلي، دار الشروق عمان- الأردن، ط1 1990م.

11. **وِلْيَم الصوري**؛ تاريخ الحروب الصليبية، الأعمال المُنجزة فيما وراء البحار، ترجمة؛ سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، 1990م.

12. **يعقوب الفيتري**؛ تاريخ بيت المقدس، ترجمة؛ سعيد البيشاوي، دار الشروق عمان، الأردن، ط١، ١٩٩٨م.

13. **خامسًا: المراجع العربية:**

14. **أحمد حطيط**؛ المدلول التاريخي لنصوص الهدنة المعقودة بين المماليك والفنج، هدنة عكا (682هـ/ 1283م) نموذجًا، مجلة تاريخ العرب والعالم، مجلد 19، عدد 179 لسنة 1420هـ/ 1999م.

15. **أحمد رمضان أحمد محمد**؛ المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية، القاهرة 1977م.

16. **حسان حلاق**؛ العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب، في العصور الوسطى (الأندلس، صقلية، الشام)، مكتبة الدار الجامعية، بيروت 1986م.

17. **رحمة رواق وكمال بن مارس**؛ الزواج في المجتمع الصليبي في بلاد الشام من خلال النصوص العربية (491- 583هـ/ 1096- 1187م)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي، الجزائر، مج7، ع4 2022م.

18. **رحمة رواق وكمال بن مارس**؛ المجتمع الصليبي في بلاد الشام منذ الحملة الصليبية الأولى حتى فتح بيت المقدس (491- 583هـ/ 1096- 1187م)، مجلة عصور، جامعة وهران- الجزائر، مجلد21، ع1، 2022م.

19. **زكي النقاش**؛ العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1958م.

20. **سعيد عاشور**؛ تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، دار النهضة العربية، بيروت 2003م.

21. **علي السيد علي**؛ العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة 1996م.

22. **علي الغمراوي**؛ أضواء جديدة على العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مجلة الدارة، العدد1، مجلد 18، 1412هـ/ 1992م.

23. **فايزة عبد الرحمن حجازي**؛ بعض الجوانب من حياة المرأة الإفرنجية في بلاد الشام في الفترة ما بين (492- 583هـ/ 1099- 1187م)، مجلة التربية- جامعة الأزهر، ع151، ج2، ديسمبر 2012م.

24. **فريد وحيد صيدم**؛ العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين في مملكة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، مجلة جامعة فلسطين للأبحاث والدراسات، مجلد6، عدد2، يونيو 2016م.

25. **فؤاد عبد الرحيم الدويكات**؛ الأسيرات المسلمات ومعاملتهن لدى الصليبيين في بلاد الشام (490-583هـ/ 1096- 1187م)، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 77، يونيو 2019م.

26. **قاسم عبده قاسم**؛ ماهية الحروب الصليبية (الأيدلوجية- الدوافع- النتائج)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الجيزة 1993م.

27. **قاسم عبده قاسم**؛ بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، مجلد22، ع2، 1993م.

28. **وفاء جوني**؛ دمشق والمملكة اللاتينية في القدس منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلاديين (492- 569هـ/ 1098- 1174م)، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط1 1417هـ/ 1997م.

29. **وفاء شابو وأميرة بوزهير**؛ أثر الصراع الإسلامي الصليبي في بلاد الشام على الحياة الاجتماعية والدينية خلال القرن 5-6هـ/ 11-12م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة 8 ماي 1945- الجزائر، 2022م.

30. **ياسمين وحيد هلال**؛ المؤثرات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين في العصور الوسطى، مجلة المنافذ الثقافية، العدد 51 لسنة 2025م.

- **سادسًا: المراجع المعربة:**

1) **ستيفن رانسيمان**؛ تاريخ الحملات الصليبية من كليرمونت إلى أورشليم، ترجمة؛ نور الدين خليل، ط2، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 1994م.

2) **عزيز سوريال عطية**؛ الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فليب سيف، دار الثقافة، بيروت (د.ت).

3) **يوشع براور**؛ عالم الصليبيين، ترجمة وتعليق؛ قاسم عبد قاسم ومحمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية– القاهرة، ط1 1999م.